

ظواهر سلبية في مسيرة الشعراء / 2



ظاهرة الديوان الواحد وآثارها المتوالة

تعتري مسيرة الشعراء ظواهر سلبية، تتباين قوّة وأثرا من شاعر لآخر، وهذه الظواهر تؤدّي إلى تآكل الموهبة وانحدارها إلى حدّ الانحطاط أحيانا، ونادرا ما سلم منها شاعر كبير أو صغير، إن صحّ أن يتمّ تصنيف الشعراء حسب هذا التّصنيف الانطباعيّ، الّذي ربّما بدا بسيطا، فإمّا أن تكون شاعرا وإمّا لا، على أنّّه يحلّو لي من باب القناعة الذّاتيّة الخاصّة التّفريق بين الشّاعر وكاتب الشّعـر، فمع ندرة تحقّق الصّفة الأولى، تجد الكثرة الكاثرة لهؤلاء الكتبة، وهؤلاء لا يصحّ في الحالة الطّبيعيّة أن يشكّلوا ظاهرة أدبيّة، إلّا بالاعتبار السّلبـي للظّاهرة، ليتخلّـل مسيرتهم ظواهر سلبية أخرى ارتدادية، فهم "لا خلاق لهم" في الشّعـر وصنّاعته الجماليّة، ولكن لكثرتهم وخطورتهم على الشّعـر والذّاتية، ولأنّهم يمارسون دورا تخريبيا ستكون هذه الوقفة مخصّصة للحديث عنهم.

ولعلّ أوّل ظاهرة سلبية في مسيرة هؤلاء الكتبة هي موت الشّاعر فيهم فنيّا وجماليّا بعد الإصدار الأوّل، وكثير منهم توقّفوا بعد الخطوة الأولى، وهذا التوقّف قد يكون ناتجا عن تواضع الموهبة الشّعريّة أو أنّ الشّاعر قد اقتنع أنّّه وصل لحدّ الامتلاء ولم يعد بمقدوره تجاوز نفسه في ديوان جديد. سأورد مثلا لهذه الظاهرة بالشّاعرة سلمى الخضراء الجيوسي، فبعد إصدارها الديوان اليتيم "العودة إلى النّبع الحالم" 1964، توقّفت عن الشّعـر، واشتغلت بمشروعها الثّقافيّ الخاصّ في ترجمة الأدب العربيّ إلى الإنجليزيّة، وقد حقّقت إنجازا مهمّا في هذا المشروع الّذي ما زال مستمرّا كما ذكرت في إحدى المقابلات معها. وما زلت أسأل نفسي لماذا توقفت "الخضراء" عن كتابة الشّعـر دون أن أتوصّل إلى إجابة شافية؟ وفي المقابلات الصحفيّة الّتي اطّـلعت عليها يتجنب المحاورون طرح هذا السّؤال مع أنّهم يتعاملون مع "الخضراء" كشاعرة، ومثال الشّاعرة هنا مفارق جدّا لهدف هذه المقالة، فهي ليست من الكتبة المقصودين، وإن اتّفق المثل في نقطة التّوقف عند الإصدار الأوّل، لكنّ الشّاعرة تابعت مشروعا حضاريا له مكانته في السّاحة العالميّة للأدب، فالخضراء قد استطاعت حيازة لقب شاعرة عن جدارة في زمن كان للشّعـر شعراؤه ونقّاده ومتذوّقوه المعتبرون، حتّى ولو كان لها ديوان واحد. فثمّة شعراء اشتهروا بعمل أدبيّ واحد سواء أكان ديوانا أم قصيدة أم بيت شعر

منفردا، فالمسألة ليست مسألة في الكثرة أساسا.

وتتولد عن ظاهرة الإصدار الأول والتوقف عنده طواهر سلبية أخرى من أمثال نشوة الغرور، لاسيما وإن حالف الشاعر الحظ وحظي بمقابلات صحفية وتلفزيونية وإذاعية، وكتابات نقدية، واحتفت به جوقة الأصدقاء من الكتبة أمثاله والمتطفلين من النقاد الغوغائيين، وتيسرت له من غامض علم السّماء دار نشر تنشر له ديوانه مجّانا، فيتبه على الآخرين أنّّه شاعر كبير، تنشر له هذه الدّار، أو تلك المؤسسة، التي ستصبح في نظره دارا أو مؤسسة مجلّة وعظيمة، مع العلم أنّ ثمّة مخاطر كثيرة محدقة بدور النّشر الّتي تجازف وهي تنشر للشّعراء، وخاصّة إذا كان الإصدار الأوّل، ويطلّ هاجس تكدّس النّسخ وكسادها أهمّ ما يقلق هذا النّاشر أو ذاك، عدا عن كساد سوق الشّعراء بالمجمل، حتّى للشّعراء المكرّسين، فما بالكم بشاعر مبتدئ يتعلّم الخطو على أرض رخوة، فستكون المجازفة كبيرة، ولكن ربّما كان هناك ما يشجّع النّاشر على فعل هذا ليكون شجاعا جدّا إلى حدّ التّهوّر، ولكنّه على كلّ حال ناشر ممتاز وحريص على المواهب في نظر هؤلاء الكتبة وفي عين نفسه الفخورة بإنجازاتها الهائلة.

إنّ توفّف الشاعر عند الخطوة الأولى في الشّعراء، يطرح مسألة في غاية الأهمية، وهي أنّ هؤلاء الشّعراء، أصحاب الديّوان الواحد، معدومو المشروع الشعريّ، فهم لا يرون سبيلا ليمشوا فيه، فأغلب الشّعراء اليوم يمارسون الشّعراء من أجل تزجية وقت الفراغ، وربّما هناك أهداف أخرى غير شعريّة بطبيعة الحال، مرتبطة بجنس الشّعراء أو منطلقة و متمحورة حول أوهامه العاطفيّة المتردّية، ولذلك فإنّك ستجد هذا الشّعراء أو ذاك يتسلّى بلعبة الشّعراء، منزلا إيّاه من عليائه وسطوته ليكون "علكة" مساء أو صباح لنيل الرّضا والمحبة والإعجاب، مع أنّ الشّعراء كائن ذكيّ سيفضح هؤلاء ويدير لهم ظهره، ويستعصي عليهم، فمهما حاولوا خديعته فلن يخدعوا إلّا أنفسهم، وتلك الشّلل الّتي تمجّد التفاهة والذّباب ستصحو يوما لترى نفسها وقد تعرّت من نفسها لتضربها الرّيح بلا هوادة.

هل تراني تجاوزت أو توهّمت أشياء غير كائنة؟ ربّما لو تأمّلنا جميعا المشهد الثقافيّ سنجد أسوأ مما قيل هنا أو ممّا لم يقل وطلّ حبيس النّفس، إن الشّعراء سيّد، بل ربّما كان قدّيسا، أو وحيا علويّا، فكيف يأتي لهؤلاء؟ هل ضلّ وحيهم ليكتشف الشّعراء أنّهم ضلّ في اختيار نبوّته ونبوءته؟ لا شكّ في أنّ هناك مدّعين، سيقفون لا محالة عند الخطوة الأولى، لأنّك أيّها "الشّعراء" لا تستطيع أن تخذع الشّعراء كلّ الوقت، ويكفيك ما مارسه من ادّعاء وحي كاذب كهمس الشّياطين، ويكفيك ما أنت فيه من نشوة كاذبة، ولتترجّل عن حصان لست فارسه وترتاح في ظلّ شجرة، فربّما أنقذتك ذات مرّة يد قدر ما، وأخذتك إلى ما يجب أن تأخذك إليه، وتذكّر ما قاله الشّعراء القديم وهو يمارع الموت، متنبّئا بما ستؤول إليه أحوال الشّعراء على يدك ويدي أمثالك:

الشّعراء صعبٌ وطويلٌ سلمه

إذا ارتقى فيه الّذي لا يعلمه

زلّت به إلى الحضيض قدمه

يريد أن يعرّبه فيعجمه

لقد ارتقيت مرتقى صعبا، ولا شكّ في أنّك ستزلّ إلى الحضيض، فما كلّ من قال القوافي شاعر، وما كلّ من عشق النّساء أمير.